فيرابند وتدهور العقلانية العلمية

د . عبدالسلام أحمد مولود أبوحميدة ـ كلية آداب الجميل ـ جامعة صبراتة

الملخـــص :

يُعد هذا البحث دراسة لموقف " فيرابند " من العقل والعقلانية على وجه الخصوص، ومحاولة للوقوف على أبعادها الابيستمولوجية والسياسية والاجتماعية . إذ يعد التصور الذي قدمه " فيرابند " لمفهوم العقل والعقلانية من أجرأ التنظيرات الابستمولوجية التي عرفها القرن العشرون وتكمن هذه الجرأة في بلورته لرؤية فكرية جديدة تثور ضد كل التصـــورات والتنظيرات المعروفة في مجال العلم وفلســـفته وذلك لمناهضـــته لكل الأنســـاق الابســـتمولوجية المتداولة ، وانتقاداته الصـــارمة لجميع نظريات العقلانية الحديثة والمعاصـــرة ، إذ يقف "فيرابند" ضـــد النزعة الاســـتقرائية ، وضـــد العقلانية النقدية البوبرية ، وضد المقاربات الابستمولوجية المعاصرة التي قدمها " توماس كون " ، حيث يرفض كل محاولة ابســـتمولوجية تســـعى إلى بناء نظرية تســـتهدف عقلنة الممارسـة العلمية ، ورسـم صـورة عقلانية للعلم ، فالعلم مشـروع فوضـوي لا تحكمه خطة حاكمة ولا وجود لمنهج علمي كلي لا تاريخي يحكم مسـيرة العلم ، ويؤسـس في مقابل ذلك مفاهيم جديدة لم تعهد لها فلســـفة العلم مثيلا ، كمفهوم " الفوضـــوية الابستمولوجية " ، " واللامقايسة " ، " والاستقراء المعاكس " ، " والتعددية النظرية والمنهجية " ، و" الملاحظة المحملة بالنظرية " هذه المفاهيم التي أصـــبحت بمثابة المسلمات الأساسية التي تقوم عليها التوجهات الابستمولوجية الجديدة في فلسفة العلم المعاصرة .

Research Summary

This research is a study of the position of "Ferabend" of reason and rationality in particular, and an attempt to identify its epistemological, political and social dimensions. As the perception presented by "Ferabend" for the concept of reason and rationality of the boldest epistemological theorizing known in the twentieth century and this boldness lies in the crystallization of a new intellectual vision revolts against all perceptions and theories known in the field of science and philosophy so as to oppose all epistemological patterns circulating, and

his strict criticism of all theories of modern and contemporary rationality, as stands "Ferabend" against inductive tendency, and against critical rationality Bobery, and against contemporary epistemological approaches presented by "Thomas Kuhn", where he rejects every attempt Epistemology seeks to build a theory aimed at

rationalizing scientific practice, and drawing a rational picture of science, science is an anarchist project that is not governed by a governing plan and there is no scientific approach to a total non-historical scientific that governs the march of science, and establishes in return new concepts that the philosophy of science has never entrusted, such as the concept of "anarchist epistemology", "non-measurement", "reverse induction", "theoretical and methodological pluralism", and "pain .

المقدمــة

" فيرابند " هو فيلسوف نمساوي الأصل كان مهتماً بمجال العلوم ، وعرفت أفكاره بالفوضـــوية ، أي : رفض وجود نســـق علمي ثابت ونهائي حيث رفض الثقة المطلقة بالعلم ، واعتبر قابلية النظرية العلمية للتكذيب معياراً أســـاســـياً للتمييز بين النظرية العلمية وغير العلمية . إن مهاجمة " فيرابند " ورفضـــه للعقلي لا يعني أنه يثني اللاعقلي ، بل هو يعتقد أن العقلي واللاعقلي كلاهما مصطلحان ملتبسان ، وهكذا فإن الالتباس الذي يقرره " أبند " بين العقلي واللاعقلي هو ما جعله يتحدث أحياناً عن نوع من المناهج اللاعقلية معتقداً أنها تؤدي هي الأخرى إلى نجاح ملحوظ لا بالمعنى العقلي ولكن بالمعنى اللاعقلي حيث يؤكد أنه من العبث أن نأمل في اختزال العلم إلى بعض القواعد المنهجية البســـيطة وذلك لتعقد تاريخه ، حيث يرى أن تنوع الآراء سمة ضرورية للمعرفة الموضوعية .

ومن خلال هذا التصور يمكننا طرح التساؤل التالي :

س / ما هي الأسس التي بنى عليها " فيرابند " نقده للعقلانية ؟

ويهدف هذا البحث للإجابة على هذا التســـاؤل من خلال مجموعة من الفروض التي وظفها "فيرابند" لدعم موقفة حول نقده للعقلانية وهي كالتالي :

1 ـ اللاعقلانية والعلم .
2 ـ الثورة على الوضعية .
3 ـ الملاحظة في النظرية العلمية .
4 ـ النظرية وعدم التكافؤ .
5 ـ العلاقة بين النظرية البرجماتية والمنطقية .

اللاعقلانية والعلم:

استخدم " فيرابند " التحاليل الفكرية والفلسفية القائمة على النقد والشك ليدحض كل المحاولات العقلانية ويهدم البناءات العلمية الســـابقة وبالتالي أصـــبح مدافعا عن اللاعقلانية تحت شعار " كل شيء جائز " معتبرا أن تقدم العلم ينطوي تحت هذا المبدأ ، فنجده يساوي بين الدين والسحر والفيزياء والفن والاسطورة ، فمن الملامح الأساسية

في فلسفته الثورة على العلم والعقلانية التي ارتكزت عليها جميع الحضارات البشرية ، أراد أن يجعل بعض المعارف العامية بنفس مرتبة العلم حيث نجده يدافع عن كثير من النصوص عن التنجيم والسحر مبينا دورهما في بناء وتقدم العلم ، فيعتقد أن مكانة " كبلر " العلمية تمت بواسطة استعمال اكتشافات جديدة لتدعيم ممارسة التنجيم حيث يكون اللامعقول هو المحرك الأول للبحث العلمي عموما والفلك بوجه أخص ، فممارسة " كبلر " للتنجيم كانت بغرض الاسترزاق وتوفير ضروريات العيش وليس انطلاقا من اقتناع معين بجدواه أو على أنه معرفة علمية . (1)

من الأدلة التي تعزز دعوى " فيرابند " وتوجهه نحو رفض ونقد العقلانية اتهامه لـ "غاليليو " باستعمال الدعاية والخداع واستغلال جهل الناس ، إذ يقول عنه أنه استعان بالأمراء لغرض نشر أفكاره ؛ لأنها غير علمية وتتعارض مع الواقع ، لكنها لقيت رواجا بفضل معرفته للخطابة ، ويقول " فيرابند " تعتبر ألفاظ " جاليليو " في الواقع حججا من ناحية المظهر فقط . حيث يستخدم " غاليليو " الدعاية والحجج النفسية ، بالإضافة لأية أسباب عقلانية يقدمها وهذه الحجج ناجحة جدا حيث قادته للنصر . (2)

يتصيد " أبند " أبسط التفاصيل في حياة العلماء لكي يطعن في قيمة العلم واصفا انجازاتهم بالعشوائية فحديثه عن " غاليليو " ليس حديث علم بل حديث عن شخص اصطنعه من وحي خياله ليبرر بها موقفه التعسفي من العلم القائم على الفوضوية ومناصرة اللامعقول ، إن العلم المعاصر يدين لأبحاث " غاليليو " ، فالاكتشافات التي قام بها بفضل التلسكوب لقيت اعترافا من لدن العلماء المعاصرين له ، مما جعله يتربع على عرش " الفلك " بدون منازع حيث تعد

التكتيكات التي يستعملها " أبند لإنشاء قصة مضادة حول تلسكوب " جاليليو " تكشف عن شعاره المتمثل في " كل شيء جائز " عوض أن يقوم بتبريره . (1) .

الثورة على الوضعية /

يرى " أبند أن النظريات العلمية هي بمثابة طرق للنظر إلى العالم ، حيث تؤثر اختياراتنا على توقعاتنا ومعتقداتنا العامة وهو ما يؤثر بالتالي على تجاربنا وخبراتنا وعلى إدراكنا للواقع (الحقيقة) ، وهذا الرأي يتعارض مع أصحاب وجهة النظر الوضعية وعلى رأسهم " هيمبل " الذي يرى أن هدف العلم هو إضفاء الصفة المنهجية على الخبرة (التجربة) التي توجد مستقلة عن أي نظريات علمية . (3)

وتتضمن وجهة النظر الجديدة هذه عن النظريات العلمية فهما جديدا وجوهريا لطبيعة التغير النظري ، كما أن رفض الفكرة الوضعية لأي عنصر ثابت (تجربة ، خبرة ،

لغة) خلال هذا التغير ما يعتبره " كون " تغيرا نظريا جوهريا ويمثل ثورة علمية ، ويرى أنه بعد الثورات فان العلماء يستجيبوا إلى عالم مختلف تماما . (4) .

وعلى أية حال فكما هو الوضـــع مع الحركات الأكثر ثورية فإن هذه الجبهة غير موحدة مثلما تقترح المظاهر الأولى لها ، يرى " شـــابير " بأن التأثير الأكثر تعمقا يشكل فلسفة علم ثورية جديدة وتأتي من النتائج التي أمكن الحصول عليها بواسطة أحد فروع العلم المتخصصة في تاريخ العلم ، وقد تم عرض هذا الاتجاه التاريخي على أنه السبب المشترك الذي يوحد فلاسفة العلم في التغلب على وجهات نظر أسلافهم من الوضعيين (5) .

إن فلاسفة العلم في عصر ما قبل الثورة قد دعوا إلى التمييز بين بيئة الكشف وبين بيئة التبرير التي تميز مجالات البحث التي يشتمل عليها تاريخ العلم وفلسفة العلم على التوالي ، وقد تم اعتبار تاريخ العلم على أنه المجال المهتم بالمشكلات الوصفية للطريقة التي تم اكتشافها بواسطتها ، ومن ناحية أرى فإن فلسفة العلم قد تعاملت مع مشكلة التبرير أو صيغة معايير قبول النظريات العلمية ، فأحيانا ما يلجأ التبرير إلى تاريخ العلم من أجل توضيح الفروض المجردة ، وإن كان مثل هذا اللجوء لم يلعب أي دور في صياغة مثل هذه الفروض ، لكن وفقا لما ذكره " شابير " فإن الوضع مختلف إلى حد ما في الجانب الثوري حيث تسود رغبة قوية في إضعاف التمييز بين الاكتشاف والتبرير ، لقد احتفظ " فيرأبند " بالتمييز الدقيق بين تاريخ العلم الوصفي وبين فلسفة العلم الموجهة ، ويعلق في خطاب وجهه لـ " كون " حول مسألة تاريخ العلم إذ يقول " إن الذي كتب في المقال ليس تاريخيا تماما ، وانما هي أيديولوجية مغطاة ومحجوبة مثلما هو التاريخ ، فالعيش بدون أيديولوجيا مستحيل ، ولا أقول بأن التاريخ يجب ألا يكتب بدون وجهة نظر عقلية ، لكن يجب أن يكتب التاريخ بطريقة القارئ المدرك ، بالإضافة إلى وجود امكانية التفسيرات البديلة للحقائق التاريخية ، وهكذا يكتب التاريخ . (6) .

ومن هنا نجده يوجه انتقاده لـــــ " كون " من خلال الغموض الذي قدمه لفكرته عن النموذج ، ويود أن يعرف ما إذا كان " كون " يعرض فكرة مرشـــدة أو صـــيغة في منهجه ، لذلك نجده هنا يخالف " كون وذلك بأن عمل على ازالة وظيفة تاريخ العلم خلال مغامراته الثورية ، فهو يقول " لقد كان هدفي هو تقديم نموذج مجرد للحصـــول على المعرفة وتطوير نتائجها ، ومقارنة هذه النتائج مع العلم ، ولربما يمكن التوقع بأن مقارنة الظواهر التاريخية مع الآراء أو النماذج المعرفية ، ســـــــوف يؤدي إلى دليل تاريخي جديد وإلى أفكار جديدة فيما يتعلق بالبنـاء الحقيقي

للعلم ،ولكن من المهم أن ندرك أنه يجب ألا نتبع هذا البناء من أجل التداخل مع النماذج ، وتخبرنا مثل هذه النماذج كيف نواصل البحث إذا كان هناك هدف معين ينبغي تحقيقه ، وهذه الطريقة هي التي تشكل أساس النقد وأساس إصلاح ما هو موجود بالفعل . (7) .

إن فلسفة العلم عند " فيرأبند " يمكن فحصها وتقييمها بقليل من الرجوع أو عدم الرجوع مطلقا إلى تاريخ العلم ، أو الرجوع إلى أي علاقة معترف بها من أحد فروع العلم ، وفي الواقع فإن فرض " فيرابند " يمكن فهمه وانتقاده بصورة كافية ، وذلك عند محاولة دراسة النموذج المعرفي الذي يشكل أساس وجهة نظره الفلسفية ، ثم يعلن " فيرأبند " وبشكل صريح مناظرته الفلسفة مع " كارل بوبر " ويرى أن كتابه في منطق الكشف العلمي قد مثل القوة الدافعة لبحوثه في العلم ، وهو يهدف إلى اختبار معرفتنا إلى أقصى حد (7) .

وهذا يتضمن تطور أفكار " بوبر" التي سوف تزيل تماما آثار أي فكرة للقاعدة التجريبية الثابتة ، ومن خلال نموذج " بوبر " المعرفي يمكن التقييم الكامل لتطور فكر " أبند " المتمثل في صياغة موجزة لنظرية المعنى Theory of Meaning والتي تشكل أحد المبادئ الأولى في فلسفته ، والتي يتم التعبير عنها بصورة واضحة باسم نظرية الملاحظة ، ويقول " يعتمد معنى كل مصطلح نستخدمه على السياق النظري الذي يوجد فيه هذا المصطلح ، إذ أن الكلمات لا تعني شيء بمفردها ، إذ تحصل على معانيها من خلال كونها جزء من السياق النظري ، وبناء عليه إذا أخذنا في الاعتبار سياقين ذوي مبادئ أساسية غير متناقضة مع بعضها البعض ، أو تؤدي إلى نتائج متناقضة في مجالات معينة ، فمن المتوقع أن بعض مصطلحات السياق الأول لن توجد في السياق الثاني بنفس المعنى بالضبط . (8) .

الملاحظة في النظرية العلمية :

يؤدي التمييز بين الطريقة والاصلاح إلى نظرية " فيرأبند " عن المشاهدة أو الملاحظة البرجماتية " Pragmatic Theory Of Observation " والتي يؤكد فيها على الفصل بين العبارة وبين خاصيتها المشاهدية ، وهكذا فإن عبارات المشاهدة قد تم اعطائها الخاصية البرجماتية مقابل تمييز الخاصية الوصفية ، كما ويتم تمييز الملاحظة " المشاهدة " ــ للجملة عن الجمل الأخرى ــ في النظرية بواسطة محتواها ، وبواسطة حقيقة هي أن إنتاجها يتوافق مع أنماط سلوكية معينة وهذا بخلاف ما كان عليه الحال في المذهب الوضعي السابق ، ويرى " فيرأبند " أنه ربما يمكن تحديد انتاج جملة مشاهدة " ملاحظة " بصورة سببية بواسطة خبرة " تجربة " المشاهدة في موقف معين ، وإن كان قد تم انكار أن هذا يتضمن تفسير جمل المشاهدة "

الملاحظة " من حيث الخبرة ، سواء تم تفسير هذه الخبرات أو التجارب بصورة ذاتية ، أو باعتبارها سمات السلوك الموضوعي . (9) .
كما وبتم تحديد وصف هذه الكيانات بواسطة النظرية العلمية ، والتي في مقابلـــها يتم تفســـير أو فهم عبارة الملاحظة ، وبناء عليه فإنها تعد البذور الأولى لوجهة نظره عن نظرية تبعية المعنى ، ومن ثم فإن الملاحظة هي نظرية ذات مضـــمون ، بمعنى أننا نستخدم النظريات لتفسير ما نشاهد وذلك لتحديد تفسير عبارات المشاهدة وهذا التفسير هو تحديد أو تقرير المعنى ، ويؤكد على أن النظرية البرجماتية للملاحظة تتضـــمن الحرية في تفسير مصطلحات المشاهدة ، والتي لم تكن متاحة من قبل للمذهب الوضعي ، وكما يراها في أحدث وجهات نظره ، فإن عبارات الاحســـاس هي مصـــطلحات المشاهدة الاساسية ، ويؤكد أيضا على أن العبارة هي عبارة مشاهدة
ذات نتائج بالنســـبة لمحتواها ، وهكذا فإن علم الوجود في مجال الملاحظة هو ثابت بصورة مستقلة عن صياغة النظرية ، كما أن مصطلحات المشاهدة مرتبـــطة مـــن حيث المعنى بما يتعلق بالتغيرات في النظرية وبالتالي يمكن أن نفهم
بأن عبارات الملاحظة عنده هي تلك العبارات التي توجد حيث توجد الظواهر ، وهي التي تجعل أفراد مجموعة ما يوافقوا أو يرفضوا العبارة بالإجماع وبرأيه تحصل مصطلحات " عبارات " الملاحظة على معانيها من النظرية من حيث ما تعبر عنه ، وعليه فإن التغيرات في النظرية تكون مصحوبة بالتغيرات في معنى عبارات المشاهدة ، وبناء عليه فإن مصطلحات " عبارات " الملاحظة ذات معنى متباين فيما يتعلق بالتغيرات النظرية وبالتالي نجد موقفه بخلاف المذهب الوضعي ، فهو لا يعترف بعبارات حازمة ولا فاسدة يتعذر تقويمها في مجال المعرفة بل حتى إن العبارات الأساسية في العلم تخضع للنقد والمراجعة والتنقيح متى كان ذلك ضروريا ، وهنا يتفق مع " بوبر " في تكذيبه المتواصل للقضايا ، ويؤكد أن نتائج الملاحظة لا يمكن التوصل إليها أو تقديرها أو تحقيقها باستقلال تام عن النظرية العلمية المفحوصة ، وإن الملاحظة تساعدنا في اتخاذ موقف معارض لفرض مقبول وهذه الملاحظة تحتاج إلى صراع شاق أكثر من المعطيات التي تتفق مع التوقعات فتوقعاتنا تؤلف ما نشاهده . (10) .
إن الملاحظة التي قدمها " أبند " غير محايدة للفرض العلمي ، مع العلم أن المطلوب من الملاحظات العلمية أن تكون محايدة ومســـتقلة تماما عن الفرض العلمي الجزئي الذي يتقدم به العالم ، على أن حياد الملاحظات من المتطلبات الأســـاســـية للجانب المنهجي ، وهذه إحدى النقاط الأســـاســـية التي يختلف بها مع " بوبر " الذي اســـتقى فرضه العلمي من موضوعات العالم الثالث الذي استقى فرضه العلمي من موضوعات

العالم الثالث ، بالإضافة إلى الاستعداد القبلي الذي يتمتع به العالم ، بالإضافة إلى فكرة أخرى في نموذج " بوبر " والتي ساهمت في تطور فكر "أبند" وهي مشكلة التوافق بين التقليدية المؤكدة للنظريات العلمية وبين طبيعتها التجريبية

المزعومة ، وتقوم هذه المشكلة على بناء المذهب التكذيبي المنهجي الذي يضع المنطقية في دحض وتفنيد النظريات أكثر مما يضعها في إثبات النظريات والبرهنة عليها ، ومحاولة إزالة أي آثار لمبدأ التبرير من فلسفته ، وبالتالي فإن " بوبر " يرفض فكرة الأساس الصارم المطلق للحقائق التي يمكن استخدامها في دحض وتفنيد النظريات ، فمنهج " بوبر " العلمي ليس تبريريا ، فقد أدرك تماما قابلية اختيار العبارات الاساسية للخطأ ، وقد ميز بأن النظريات المتضمنة في صياغة المشاهدة " الملاحظة " لها اعتبارات معينة كما هو الحال في الاختبار على أنها خلفية معرفية مثيرة للجدل والخلاف ، وبالتالي وجدناه يعترف بإمكانية تكذيب نظرية صحيحة ، أو حتى بإزالة النظرية التي تم تكذيبها على أنها البديل الوحيد لمذهب الشك أو اللامنطقية خلال العلم ، وبالتالي فإن مثل هذه المواقف قد تم الاعتراف بها على أنها تمثل نقطة الوصول للتهور ، وتمثل مبادئ النمو التجريبي وتزايد النظريات حجر الزاوية للنموذج المنهجي لدى " أبند " إذ أنه يبدي عدم اكتراثه بتاريخ العلم ، وهنا لا يمكن إعادة تصور منطقي لتاريخ العلم والذي يكمن ورائه فهم " أبند " للاختبار ، حيث يؤثر هذا على رغبته في تجنب مذهب الشكوكية الذي يعتقد " أبند " بأنه اللازم أو المتأصل في مبدأه ، وبأن الخاصية الفاسدة للنظرية العلمية لا تستبعد تحديد الحقائق المتناقضة معها ، وهنا فإن المبدأ الأساسي لهذا النموذج يقوم على تزايد النظريات ، وهذا بدوره يتطلب صياغة النظريات المتناقضة مع وجهة النظر المقبولة بشل عام والمبرهن عليها بصورة كبيرة ، وهذا هو النموذج الذي يطلق عليه النموذجية التعددية " Pluralistic Methodology " ويشير إلى أن النظريات التي تم صياغتها حديثا تمثل بدائل لوجهة النظر المقبولة وبجانب الحاجة إلى ابتكار بدائل مثل هذا النموذج ، فإن هذا يمنع إزالة النظريات الأقدم طالما أنها تقدم مصادر النقد للنظريات الأخرى المنافسة المنتصرة . (11) .

افترض " أبند " أن النظرية " **A** " تبدي ذاتها على أنها بديل لوجهة نظر موجودة في " **T** " وأن " **A** " ليست بديل قوي لـ " **T** " ، إذا كان الاختلاف في توقعاتهم ذات الصلة يمكن تفسيرها بواسطة جزء متغير من " **T** " ، ومن ناحية أخرى فإن البدائل القوية سوف تتناقض حول المبادئ الأساسية ، كما إن الاصلاح " التجديد " الجزئي لإحدى النظريات لا يمكنه إحداث اتفاق في التوقع وفي ضوء مذهبه هذا عن

نظرية استقلال المعنى فإنه يعتبر مثل هذه النظريات غير متكافئة ويعكس تعريفه اللاتكافؤ صياغتها خلال إطاره النقدي للبدائل ،ولقد انتقد تعريف اللاتكافؤ من حيث التناقض متسائلا : كيف يكون من الممكن رفض كلا من شرط الاتساق وشرط ثبات المعنى ؟ وإذا كانت العبارات في نظريتين متناقضة مع نظرية أخرى ، حينئذ فإن ما تنكره أحد النظريات يجب أن تؤكد عليه نظرية أخرى ، وهو ما يعني أن النظريات يجب أن يكون لها بعض المعاني المشتركة . (5)

وهنا نجد " أبند " يميز بين النظريات الغير متكافئة بأنها أقوى نوعية من البدائل النقدية ، والاعتراض هنا هو أن المقارنة النقدية للنظريات الغير متكافئة خارج السؤال الذي يحتاجه للحصول على إجابة سريعة عليه ، وهو ما يشكل هجوما مباشرا على نموذجه النقدي ، ووفقا لانتقاداته فإن النظريات الغير متكافئة لا يمكن أن تناقض نظرية أخرى ، وبالنسبة للنظريات التي تناقض نظرية أخرى يجب أن تنكر ما تؤكد عليه النظرية الأخرى ، ونتيجة لذلك يجب أن يكون لديها بعض المعاني المشتركة ومن ناحية أخرى فإن النظريات التي ليس لها معاني مشتركة يمكنها أن تتناقض أولا مع نظرية أخرى ،والرد الأساسي الذي قدمه على هذه الانتقادات يعتمد على نظرية المشاهدة " الملاحظة " البرجماتية ، ويتضمن طريقة مقارنة النظريات التي لا تعتمد على مقارنة العبارات ذات العناصر أو المكونات المتطابقة ، وتفترض مسبقا استحالة مقارنة النظريات غير المتكافئة بواسطة التجربة الحاسمة ، فالاختبار الذي تمت صياغته على أساس المقدمة المنطقية بأن عبارات المشاهدة الحقيقية والتي يعتمد صدقها على معاني عبارات المشاهدة ومدى تطابقها مع العالم . (11) .

وينشأ مبدأه عن نظرية تبعية المعنى بأنه ليس هناك عبارة مشاهدة مفردة يمكن استخدامها للحكم على النظريات غير المتكافئة ، إذ لا تمتلك نتائج يمكن مقارنتها ، وعلى أي حال فإن تطبيق نظرية المشاهدة البرجماتية يتغلب على هذه الصعوبة بواسطة انكار عبارات المشاهدة التي تحكم على النظريات بموجب معناها ، والاختبار ليس فقط مقارنة عبارات ، ولكنه مقارنة سلوكيات وفقا لما ذكره " أبند " قائلا : بينما لا توجد لغة مشاهدة مشتركة فلا يزال هناك التجربة الانسانية والتي تمثل عملية، موجودة بالفعل ، والتي بدورها تجعل المشاهد متوافق بصورة جيدة مع النتيجة النهائية لعبارات الملاحظة . (12) .

ويمكن معاملة هذه العبارات على أنها تشبه قراءات المؤشر في أحد الأجهزة العلمية وهكذا فإنها تحتاج إلى تفسير العبارات النظرية قبل امكانية أن نرجع إليها أهميتها أو معانيها ، وليس كل تفسير للعبارات التي يمكن النطق بها ممكن أن تكون مثل النظرية

التي تقدم تفسيرا تتنبأ به بالصورة التي يظهر من خلالها عبارة المشاهدة ، وبالتالي فإن النظريات التي لا يمكن مقارنتها بالرجوع إلى معانيها ، فإنه من الممكن تقييمها وفقا لفوائدها ومزاياها النسبية في محاكاة السلوكيات اللفظية للكائنات الحساسة التي ليس لديها نظرية معرفة ، وما يراه " أبند " عن عدم القبلية للمقارنة أو اللاتكافؤ هو تصوره عن تعلق الملاحظة بالنظرية وتوقفها عليها ، فدلالة المفاهيم وتأويلها ومنظومات الملاحظة التي تستخدم هذه المفاهيم يتوقفان على السياق النظري الذي يظهران فيه ، ففي بعض الحالات قد تكون المبادئ الأساسية لنظريتين متنافستين من التباعد بحيث تنكشف استحالة حتى مجرد صياغة مبادئ إحدى النظريتين بحدود النظرية الأخرى ، وينتج عن ذلك أن النظريتين المتنافستين لا تشتركان في أي من منطوقات الملاحظة الخاصة لكل منهما ، كما لا يكون من الممكن بسبب ذلك التباعد بين مبادئ النظريتين القيام بالاستنتاج المنطقي لبعض نتائج إحدى النظريتين انطلاقا من مبادئ النظرية المنافسة لها

وذلك ضم ن م نظور المق ارنة بينهما ، وبالتالي فالنظريتين غير متقايستين أو غير متناسبتين . (13) .

ويطرح هنا مثالا بين الميكانيكا الكلاسيكية وبين النظرية النسبية فالموضوعات حسب الميكانيكا الكلاسيكية تقوم على الشكل والحجم ، أي ما هو قابل للملاحظة أما النظرية النسبية فإن مثل هذه الخواص لم تعد موجودة فقد أصبحت تدرس معنى العلاقات بين الموضوعات وبين منظومة مرجعية ، وعدم قابلية نظريتين متنافستين للمقايسة لا يعني أننا لا نستطيع بأي صورة من الصور مقارنتها ، فإحدى الوسائل الكفيلة بإجراء مثل هذه المقارنة هي مواجهة إحداهما بالأخرى في سلسلة من الأوضاع القابلة للملاحظة مسجلين درجة توافق كل منهم مع هذه الأوضاع ، وترجمة هذه الدرجة وفقا للحدود الخاصة بكل منهما ، ويرى " أبند " أنه يمكن أن نقارن النظريتين المتنافستين من خلال النظر فيهما إذا كانتا متماسكتين ، وفيما إذا كانت هناك تقريبات مؤكدة أو جزئية ... الخ ، وإن مسألة الاختبار هذه تجرنا لمعرفة أي من المعايير تساهم في إجراء هذه المقارنة ، وأن العبور نحو معايير لا تأخذ في اعتبارها المحتوى أو المضمون يحول الاختبار النظري وينزع عنه شكل الروتين العقلي الموضوعي ، ويجعله يتخذ شكل نقاش معقد تظهر فيه أذواق متصارعة . (13) .

هذه الحالة من عدم التكافؤ بين النظريات تقودنا بالضرورة إلى إدراك العلم على نحو ذاتي ، أي ما يبقى بعد اقصاء إمكانية المقارنة منطقيا بين النظريات ، وهي الأحكام الجدلية أي ما يبقى بعد ذلك هي رغباتنا الذاتية وبذلك يقول " أبند " : إن وجهة النظر

الكونية العامة لا يتم محوها ، لأن عبارات الملاحظة " المشاهدة " الخاصة بها تقول بأنه يجب أن يكون هناك خبرات

وتجارب معينة ، والتي لا يمكن أن تحدث عقب ذلك ويمكن أن نزيلها عندما يكون بإمكانها إحداث عبارات المشاهدة عندما ينفيها المشاهدون لها ، ولذلك فإنه لا يزال يتم الحكم عليها بواسطة التوقعات التي تبديها ، وعلى أية حال فلا يمكن الحكم عليها من خلال صدق أو كذب عبارات التوقع ، ولكن بواسطة الطريقة التي من خلالها يتم ترتيب عبارات التوقع ، وبواسطة الاتفاق أو الاختلاف على ترتيبها المادي ذو الترتيب الطبيعي لعبارات الملاحظة وفي آخر مرحلة يتم الحكم عليها بواسطة الترتيب الطبيعي للحواس (14) .

وهنا نصل لفكرة هامة مفادها أنه وبعدما وجدنا أن سلوك الكائنات الحساسة يتأثر بواسطة المعتقدات فهنا ستصبح معايير الحكم بين نظريتين هي معايير ذاتية ، وقد اعترف " فيرابند " بأن المعيار الموضوعي غير ممكن ، وهذا على عكس المنهج البوبري الذي يرفض فكرة الذاتية ويدحضها بشدة ، ويطرح فكرة العوالم وعلى رأسها العالم الثالث " الموضوعي " ، إذ أنه يتضمن سلوكا لغير محتوى النظرية ، أو السلوك المرتبط بنظرية راسخة غير قابلة للتفنيد ، ونتيجة لذلك لا يمكن إعطاء المعنى الموضوعي للتفسير ويضيف " أبند " : إن ترتيب الحواس مثل الحكم " القرار " يمثل تجسيم الصفات البشرية ، كما أن الأنماط السلوكية للكائنات الإنسانية التي تم ترتيبها بصورة عادية هي مقياس للطريقة التي يمكن من خلالها النظر إلى الكون ورؤيته ، علاوة على هذا فإن الجانب البرجماتي للنظرية ليس شرطا لكفايتها ، ومن أجل أن نكون قادرين على مد وتوسيع مجال علمنا ، فإن النظرية يجب أن ترشدنا وتوجهنا إلى مجالات جديدة ، وبهذه الطريقة فإن النظرية تعمل على إعادة بناء كل من أفعالنا وتوقعاتنا بدون أن تصبح متداولة تماما ، ويمكن أن نتخيل ذلك العالم الذي يمكن من خلاله اختبار مثل هذه الطريقة والتي يتم ذكر أن عالمنا من هذه النوعية . (12) .

ونبين هنا أن هذه الصياغة التي قدمها " أبند " قد مثلت حدا فاصلا بين ميله من أقصى موضع في العقلانية النقدية إلى المسارات اليائسة لعدم الشكوكية ، كما أن قبول الهروب من مذهب النسبية والمقدم خلال هذه الفترة من حيث نمط الاحساس المستقل عن النظرية سوف يدعم اعتمادا على التفسير المقدم هنا ـــ السمات الحازمة والسامية التي سعى إلى إزالتها من المذهب التجريبي ، علاوة على ذلك فإن ضرورة مثل هذا العائق على نظريته في المعنى يتم ادراكه بصورة كاملة فقط عندما يتم مد المنهجية النقدية البوبرية إلى سياق النظريات المتنافسة والغير متكافئة وبالتالي فإن

مذهب نظرية استقلال المعنى مندمجة مع مبدأ النقد البوبري ، وهذا ما يؤدي إلى تخلي " أبند " عن المنطقية لصالح النسبية ، وخلال افتراض مثل هذه النتيجة ، فمن الضروري إزالة الغموض في ادعاء " أبند " بوجود التداول في صياغة النظريات الكونية ، والتي وفقا لها فإن الثبات والاستقرار الجزئي يكون مطلوبا كعكس للإحساس القوي ، والذي يأخذ في الاعتبار الثبات والاستقرار على أنه ثبات كامل أو مستقيم ، وهنا يذكرنا بـ " كون " الذي أكد على أن الأحكام العلمية نسبية ، أي بالنسبة للنموذج المعمول في إطاره وحتى فكرة اللاتكافؤ أي عدم قابلية النظريات العلمية للقياس المتكافئ للحكم عليها بالمعايير نفسها كانت متوافقة مع فكرة " أبند " ، وعن نظرية المشاهدة " الملاحظة " البرجماتية فمن الممكن إعطاء معاني مختلفة وغير متكافئة بواسطة البدائل القوية ، وهكذا ومن خلال تحديد نظرية الملاحظة البرجماتية فقط ـــ على سبيل المثال مذهب نظرية تبعية المعنى ـــ فإن التجربة الانسانية باعتبارها عملية موجودة بالفعل يمكن قبولها بصورة غير نقدية على أنها أساس برجماتي لمقارنة النظريات الغير متكافئة كوسيلة لتجنب عدم المباشرة في صياغة النظرية وكبديل للموضوع ، وهنا تصبح هذه المشكلة أثر ذيوعا إذا تم إعطاء فرض " أبند " أقوى تفسير ، ويبدو أن التفسير الضعيف لم يعد ملائما عندما يأخذ " أبند " في الاعتبار المطلب البوبري للنمو والنقد في مجال النظريات المتنافسة والغير متكافئة ، ويبدو هذا واضحا في مطلبه بأن قبول النظرية الكونية يجب أن يساعدنا في مد وتوسيع تصرفنا من خلال توجيهنا إلى مجالات جديدة

ويجعلنا أكثر حسما بالنسبة لأفعالنا وتصرفاتنا ، ومن خلال حديثه عن العلاقة بين المنطقية وبين نظرية الملاحظة البرجماتية نجد أنه قد تم التخلي عنها وتم اعتبار النظريات الغير متكافئة بأنها تضعف نظريات الصدق ولم يتم بذل أي محاولة لإنقاذ هذه النظرية بواسطة اللجوء إلى نظرية الملاحظة البرجماتية وهذا لسببين :

1 ـــ إن بوبر أصبح متشككا في افتراضه عن الثبات والاستقرار البنائي للحواس من خلال نظرية التغير ، بالإضافة إلى أن هذا الفرض قاصر على النقد كما أثبت عدم صلاحيته تجريبيا ، وزعم " بوبر " بأننا نحاصر أنفسنا ونحرمها من الاكتشاف عند حدود هذا الفرض .

2 ـــــ تتوافق اعادة التوجيه في الفكر هذا مع التحول في اهتماماته النقدة إلى مجال العبارات الأساسية ، والي لا يقدم نموذج النمو البوبري أي معيار لقبول العبارات المتكافئة وغير المتكافئة على حد سواء ، ومن خلال جوهر منطقيته النقدية فإنه يرغب في تطبيق الأساليب البوبرية على كل الفروض التي تحتوي عليها فلسفته ، فالعلم

الشـــائع والمنقح للمنطقية النقدية كما يراه " أبند " يســـتخدم مجموعات ثابتة معينة (الذات ـــ الموضوع ـــ الحقيقة) بالإضافة إلى العديد من وجهات النظر المتغيرة التي تحتوي عليها ، ونتيجة لذلك فهذه المجموعات غير منطقية ، ويمكن الحـــصول عـــلى المنـطقية الكـاملة بواسطة مد وتـوسيع النـقد إلى الأجـزاء الـثابـتة أيضا . (15) .

وبالعودة إلى نموذج " بوبر " فإننا نسـجل أيضـا أن الاختبار الحاسـم يفترض مسـبقا أساسا مشتركا للعبارات الأساسية والذي يعمل كمقياس تجريبي لنظريتين متنافســـتين وللنمو التجريبي المتضـــمن في التغير النظري ، وهكذا وحول النموذج البوبري عن النمو فإن نتيجة تقييم النظريات المتنافســـة بصـــورة كاملة تعتمد على قبول أو رفض العبارات الأساسية وفي ضوء هذه الدورة المعرفية فإن " أبند " ينظر فقـــط إلى أحد النتائج الممكنة وهـــي الـــوقوع في الخطأ ، وبالنسبة للخبرة " التجربة " فلا يمكنها برأيي كما طرحها " أبند " أن تلعب دورا حاسـما في المعرفة لأن التفسـير الصـحيح يكون هو التفســير الذي من خلاله تصــف العبارات المفســرة المقبولة للظواهر التي تسـبب قبولها ، ومن الواضـح أن صـحة التفسـيرات يتم بنائها على أنها نوع من فكرة التطابق ، حيث يكون التفسير الصـحيح هو فقط العبارات المفسـرة الصـحيحة المقبولة وبالتالي فإن الصدق يتم بنائه بالنسبة للتطابق مع الظواهر ، فليس هناك طريقة تستطيع من خلالها تجربة الظاهرة أن تكشـف أو تبدي صـدق العبارة المفسـرة التي تم الموافقة عليها كنتيجة لتجربة الظاهرة ، وهكذا فإن تفسـير لغة المشـاهدة يتم تقريره بواسـطة النظريات التي نستخدمها لتفسير ما نشاهد ، والتي تتغير بتغير تلك النظريات ، وهكذا فإن مصطلحات النظرة ومصطلحات لغة المشاهدة المستخدمة لاختيارات هذه النظرية تعطينا بالضبط نفس المشكلات المنطقية ، وهذا على عكي الاستقراء القادر على إقامة صـــدق النظريات على أســـاس الخبرة ، حيث أن التجربة قادرة على إثبات صـــحة تفسيرات عبارات لغة المشاهدة ، وهذا ما رفضـه " فيرابند " ، وبالنسبة لنظريته عن الملاحظة فهي لا تسمح بإمكانية جعل المشاهد بواسطة التجربة بأن يرفض عبارة حكم المشـــاهدة ، والذي هو نتيجة منطقية للنظرية ، في حين أن تفســير العبارة الذي تقدمه النظرية يجعل العبارة المرفوضة صحيحة من الناحية التحليلية ـ وهذا طبعا على عكس " بوبر " ، فعندما تكذب عبارة واحدة في النظرية فإنها تقصـــي النظرية بالكامل وبالتالي فإن وجهة نظر " فيرابند " لا تسمح بالتناقـــض بين النظرية والملاحـــظة ، وهـنا فإن نـظرية المـعرفة عـنده تتـحول إلى الاعتقاد في النظريات والمشاهدات التي لا يمكن دعمها بواسـطة الخبرة ، إن لغة الملاحظة التي اعطاها " أبند " اهتماما كبيرا يمكن اعتباها لغة غير كافية للفحص والتدقيق فهي تجســد المفاهيم المســتخلصـــة من

العلوم المساعدة التي بطل استخدامها وهذا سوف يحدد ما يمكن اعتباره دليلا ذو صلة بالموضوع ، ومع ذلك فلا غنى لنا عن التجربة " الاختبار " في تحقيق أعلى مستوى من الصدق ، وقد نظر " فيراند " إلى التفنيد بأنه اشارة إلى التناقض وعدم الاتساق ، ويوضح التفنيد أن النظرية الجديدة ذات أهداف مشتركة مع الموضوعات التقليدية المساعدة ،

ولا يوضح أن النظرية غير صحيحة بصورة فطرية ، بالإضافة إلى أن الانسجام والاتساق بين النظرية القديمة والعلوم المساعدة الموجودة ربما يكون كبير لدرجة أن النظرية الجديدة ـــ والتي تختلف مع القديمة ـــ سوف تمزق الانسجام ، كما وستظهر الأمثلة المفندة بشكل كبير حتى إذا كان التغيير يجب أن يحدث على أنه تحسن ، وبالتالي فإن النظرية الجديدة يجب اختبارها بواسطة التآلف بين قوانين الكون الجديدة وبين بيانات الملاحظة وهذا ما يحدث بواسطة العلوم المساعدة ، وهذا القول قد شكل الضربة القاسمة لتكذيبية " بوبر " والقائمة على التجربة ، ورؤيته المنهجية لنمو وتقدم العلم من خلال اختبار العبارات الأساسية والتي تشكل العامل المهم في نمو النظرية أو تكذيبها " تفنيدها " مكذبا بذلك كل الآراء التي تجمع على أهمية ودور الملاحظة في انتقاء المعاف ، وقد حاول "فيرابند " بعد نقده منهجية " بوبر " تزيين فلسفته بعدد من المذاهب المتباينة ، وفي التوصية المتعلقة بزيادة النظرية قد تم عرضه على أنه يساهم في إضعاف دور العقل في نمو العلم ، والتأكيد على دور الاهتمامات وأساليب الدعاية ، فإنه يلجأ إلى التاريخ للحصول على الدعم الواضح ، وإلى طبيعة العلاقات الغير قابلة للانفصام بين النظرية والتطبيق من أجل الملائمة التوضيحية فهو لا يطور أفكاره إلى نظام فلسفي بديل ، وقد تم تحديد اتجاهه الفكري الأساسي بواسطة المذهب البوبري ومواطن الخلل فيه ، فقد أعطى للملاحظة الدور الهام في عملية البناء المعرفي ، أي وضع نفسه في إطار الذاتية المعرفية ، وهذا على عكس " بوبر " الذي اتخذ من موضوعية المعرفة أساسا لمنهجه ، وبالتالي يتم وضع مذهبه الانتقائي من خلال تحديده بواسطة النقاط الحرجة للمنطقية وللعقلانية النقدية محاولا تطبيق أفكاره تلك من خلال تقديم محاولة للارتقاء بالعلم ضمن مجتمع ليبرالي خالي من القيود على الفكر ، وعلى ممارسة حرية هذا الفكر ، رافضا بذلك القوالب الجامدة التي تقيده .

نتائج البحث

- قامت فلسفة فيرابند على تحدي النظريات الفلسفية التقليدية في تفسير أهداف العلم ، كما هاجم العقلانيين الذين ينادون بوجود منهج واحد مميز يدير دفة البحث العلمي منطلقا من فكرة أن المنهج الواحد لا يستطيع تزويدنا بالخطوط الموجهة ، والتي يمكن

أن تفيد الباحثين في العلم ، ويرى أنه من العبث أن نقوم بوضع العلم ضمن جملة من القواعد المنهجية البسيطة ، فالعلم له تاريخ عريق .

- اتفق مع كون حول التدريب العلمي للأفراد والباحثين لكنه اختلف معه في فكرة أن التدريب العلمي يجب أن يكون محصوراً بالجماعات العلمية فالعلم عنده ضروري للإنسان العادي أيضاً ، وأكد على ضرورة اشراكه في كل مجالات العلم .
- لقد كان فيرابند من اكثر الشخصيات المثيرة للجدل في عصره ، فقد رفض نوعية الأشياء التي يمكنها أن تنسف عقل الباحث مثل سلطة العلم المطلقة كما كانت عليه الأمور في العصور الوسطى ، كما أن اتباع أفكاره يؤدي إلى التحرر من كل قيود ومعوقات الاقتناع بالأولوية الاجتماعية أو المنطقية .
- شن أبند هجوماً على المنهجيات المغلقة مبيناً لنا طبيعة الحافز الايديولوجي لفلسفة العلم والذي قد أصبح واضحاً ، والمتمثل في رفضه للتعقيد المنهجي وخداع المثاليات التي زعمت أنها تتصدى له بصورة تاريخية ، ويرى أبند أن الأفكار المنطقية لهؤلاء أوضحت أنها هي ذاتها أداة للإمبريالية الثقافية ، وقد حاول أبند أن يقدم إلى المعرفة العلمية طرق للعلم الاجتماعي ، والتي افترضت كلها أن المعرفة العلمية هي بناء اجتماعي .

التوصيات :

اتفق مع أبند على أن لا يوضع العلم في قالب واحد ، بل من الضروري وجود أكثر من تعددية منهجية ، وأؤيد فكرته القائمة على اشراك الناس العاديين في اتخاذ القرارات ، لكن بشرط تدريبهم على كيفية الخوض والتعامل مع هذه القرارات .

الهوامـــــــــــش :

1 ـ البنعزاتي : الاستدلال والبناء ـ تونس ـ دار سحر للنشر ـ 1999 ص 474 . 391
2 ـ فيرأبند : ضد المنهج ـ 1975 ـ ص 119 .
3- Hempel (K) : The Theoreticians Dilemma, In Aspects Of Science, New York, 1965 , p . 178 .
4 – Khun (T) : The Structure Of Scientific Revolutions , Op,Cit,p.110 .
5 – Shaper (D) : Meaning And Scientific Change In Mind And Cosmos University Of Pittsburgh Press 1966. P . 46 . 157 .
6 – Hoyningen(Paul) : Two Letters Of Paul Feyerabend To Thomas Kuhn On Draft Of The Structure Of Scientific Revolutions Studies In History And Philosophy Of Science Journal Britain , 1995 ,p . 355 .
7 - Feyerabend (P) : Reply To Criticism : Comments On Smart Sellers . And Putnam , Boston Studies In The Philosophy Of Science Vol.11 New York 1965 . p : 223 .
8 - Suppe(Frederick)The :Observational Origins Of Feyerabends Anarchistic Epistemology In The Beyond Reason Essays On The Philosophy Of Paul Feyerabend , London .11991 . p : 302 . 35 .
9 - FeyerAbend (Paul) : Explanation . Reeducation And Empiricism, p : 36 .
10 – ماهر عبدالقادر : فلسفة العلوم – المشكلات المعرفية ، الاسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ـ 2000 . ص 118 .
11 - Feyerabend (P) : Reply To Criticism , Op ,Cit , p : 223 . 224 . 232 .
12 - Feyerabend (P) : Problems Of Empiricism In Beyond The Edge Of Certainty , Op.Cit, p : 214 . 215 .
13 – آلان شالمرز : نظريات العلم – ت : حسين سحبان وفؤاد الصفا – المغرب – دار توقبال – 1991 – ص : 137 . 138 .
14 – Preston(John) Feyerabends Early Philosophy Science And Society Journal Cambridge , 1997 , p 360 .
15 - Feyerabend (P) : Against Method In Minnesota Studies In The Philosophy Or Science (ed) M. Radner University Of Minnesota , 1970 , p : 32 .